

(من كتاب الحج وروح العبادة فيه)

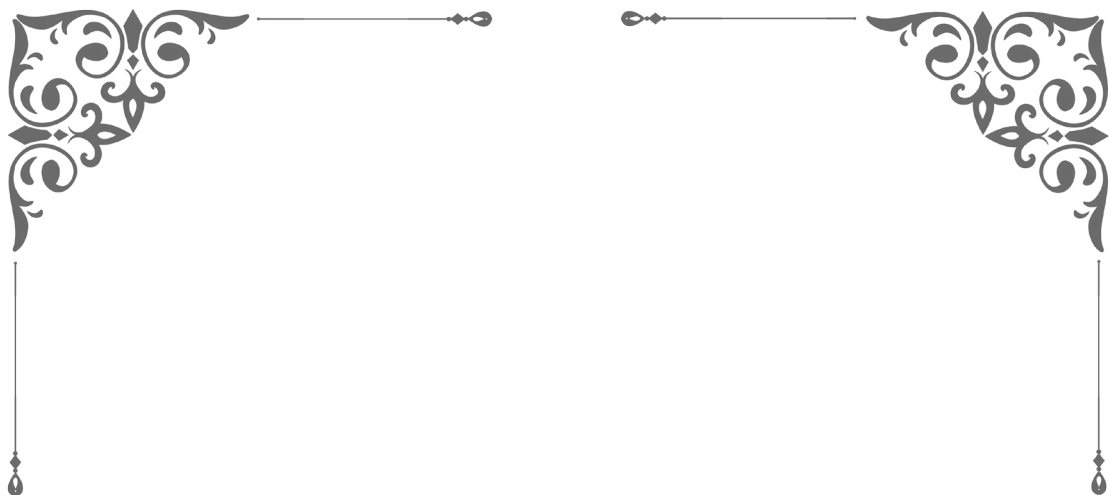
(١)

الحج وروح العبادة فيه

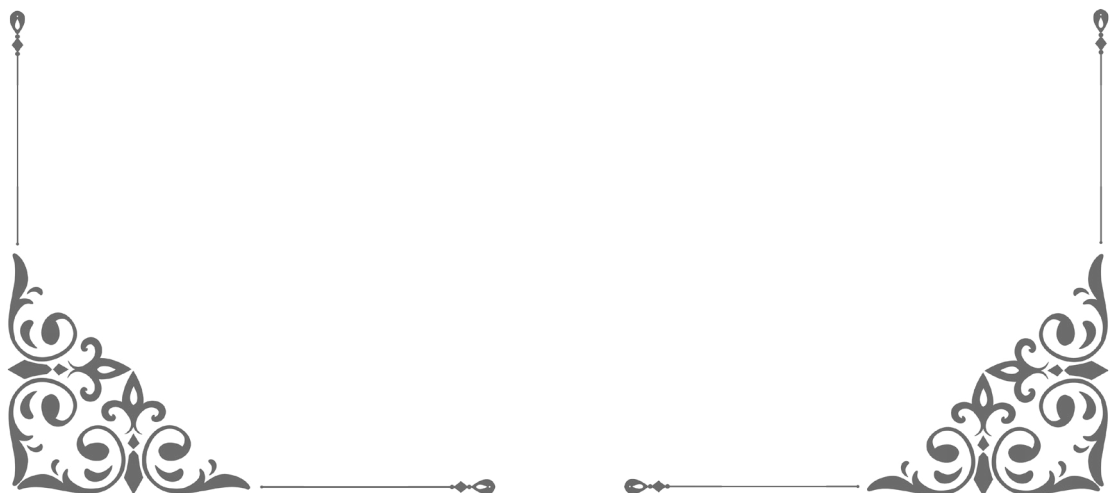


تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني



محفوظ جميع الحقوق





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدِّمة

الحمد لله، شرع لعباده من العبادات ما يزيد به إيمانهم وتسمو به أرواحهم، وتعلو درجاتهم، وتُقَال عشراتهم، والصلاة والسلام على خير من حجَّ إلى بيت ربه الحرام، وطاف وسعى، ووقف في عرفات، وبات في مزدلفة، ورمى الجمرات، ونحر وحلق في خشوع وخضوع وسكينة وخشية، صلى الله وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وبعد.

فإنَّ الحجَّ إلى بيت الله الحرام عبادةٌ جليلةٌ القدر، رفيعةُ الشأن، عظيمةُ الأجر، وهو العبادة الوحيدة التي سُمِّيت بها سورة في القرآن، وفُصِّلَتْ فيه أحكامه ما لم تُفصَّلْ في غيره من العبادات، وفي هذا دلالة على عناية الله بهذا الركن، ومكانته الكبيرة عنده، يقول ابن عاشور رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد ظهرت عناية الله تعالى بهذه العبادة العظيمة، إذ بسط تفاصيلها وأحوالها مع تغيير ما أدخله



أهل الجاهلية فيها^(١).

وعباداتُ العبدِ لربه - ومنها عبادةُ الحجِّ - حقها أن تُؤدى على أكمل وجه، فلا تكون جوفاء، أو تُؤدَّى بلا روح، أو تُفعل بذهول وغفلة، فمن أدّاها هكذا لم تُؤتِ أَكُلها، ولم ينتفع بها صاحبها النَّفَع المرجوٌّ منها، وقد تتحول عند الإنسان إلى عادة أو حركات مجردة، ظاهرها التَّعبُد، لكنها تفتقد للبِّ العبادة (من الإخلاص لله، وحضور القلب فيها، والتلذذ بها) بل ربما فُعلت على وجه التخلُّص، وكأنَّها إلقاء حملٍ عن الظهر.

ومن أدَّى فرض الحجِّ سيسقط عنه فرضه ولا شك، ما لم يأت بمبطل له، لكنَّ مسألة الأجر والثواب قد دلَّت نصوص الشريعة على أنَّ مقدارها بحسب حضور القلب في العبادة، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في شأن الصلاة: "إِنَّ الرَّجَلَ لِيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ، تِسْعُهَا، ثَمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدْسُهَا، خُمْسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا"^(٢).

(١) [التحرير والتنوير: ٢ / ٢٣١]

(٢) رواه أبو داود.



وهكذا فإن الأجر يكون في الحجِّ وغيره من العبادات على قدر حضور القلب فيه.

ولمَّا لم يلتفت بعض العباد لهذا الشأن ضعف أثر العبادات عليهم، فتجد عند مَنْ يصلي الغيبة والنميمة، والتعدّي على حقوق الآخرين؛ لأنّها لم تُؤدَّ على الوجه الأمثل، وربما لا ترى أثرًا عند بعض مَنْ أدّى شعائر الحجِّ، وإن كان السواد الأعظم إن شاء الله قد انتفعوا بهذه العبادات، ولكن تبقى طائفةٌ منهم تحتاج إلى مزيد عناية لإيقاع هذه العبادة على الوجه الأمثل حتى ينتفعوا بها الانتفاع الأكمل.

ولأنَّ الحجَّ يعتريه ما يعتريه من المشقة، والذهول عند أدائه لكثرة الناس واشتداد الزحام، كان لزامًا على من يؤدّيه أن يُراعي هذا الجانب المهم، وتحقيق مقاصده (من استحضار جانب العبودية فيه، وأدائه على أكمل وجه، والشعور بروح العبادة في كل منسك من مناسكه)

وكذلك (تحقيق التقوى) فالحاجُّ يتجرّد من ملابسه المعتادة ليلبس ملابس الإحرام، ويطوف ويسعى، ويقف في عرفات،



وبيت في مزدلفة، ويرمي الجِمار، ويحلق أو يُقَصِّر، ويذبح هديه،
ويطوف في البيت للوداع متنقلاً بين هذه العبادات والمناسك،
منقاداً لأمر ربه، وإن كان غابَ عنه شيءٌ من حكم هذه العبادة،
إلا أنه يعلم يقيناً أنها مليئة بالحكم التي تزيد في إيمانه بها
وبمشروعيتها، ولذا ينبغي عليه أن يسعى لفهم مقاصدها ف(فهم
مقاصد العبادة وأسرارها وحكمها يساعد بشكل كبير في تعظيمها
وحضور القلب عند القيام بها، وممَّا أضعف أثر الحج في نفوس
بعض المسلمين هو الانشغال كثيراً بالجانب الفقهي لأدائها
-على أهميته- وعدم الانتباه والتدبُّر في الجانب المقاصدي لهذه
الفريضة العظيمة)^(١).

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (وأما الحجُّ فشان آخر لا
يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنه أجلُّ من
أن تحيط به العبارة، وهو خاصَّةُ هذا الدين الحنيف، حتى قيل في
قوله تعالى: (حنفاء لله). أي: حُجَّاحًا)^(٢).

(١) [مقاصد الحج في ضوء القرآن الكريم: محمد الخولي]

(٢) [مفتاح دار السعادة: ٢/٨٦٩]



الحجُّ وروح العبادة فيه



وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (أفعال الحج وأقواله كلها أسرار وحكم المقصود منها القيام بالعبودية المتنوعة، والإخلاص للمعبود؛ فالحجُّ مبناه على الحبِّ والإخلاص، والتوحيد، والثناء، والذكر للحميد المجيد، فإنما شرعت المناسك لإقامة ذكر الله^(١)).

والغاية من العبادات كلها صلاح النفس، وتحقيق التقوى، وحصول الخشية، وسبيل هذه الغايات النفيسة (الإخلاص فيها، وإتقان العبادة، وإيقاعها على أحسن وجه).

ولو أنّ الحاجَّ أدّى مناسك الحجِّ على أكمل وجه، لعاد بقلبٍ غير القلب الذي خرج به، ولرجع من حجِّه راغبًا في الخير، نافرًا من الشرِّ لأنّه قد ذاق حلاوة الطاعة، ووجد لذة العبادات، وأنست روحه بمناجاة ربه، ولذا لَمَّا سُئِلَ الحسن البصري رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْ عِلْمِهِ بِعِلْمِ اللَّهِ قَالَ: (أَنْ يَكُونَ أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا، أَرْغَبَ فِي الْآخِرَةِ)

(١) [مجموع الفوائد واقتناص الأوابد: ٢٦٥]



وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(١) إشارة واضحة إلى أن يسعى العبد لإخلاص القصد لله، وإتمام هذه العبادة على أكمل وجه أمكنه، ومن أعظم أسباب ذلك: التفقه فيها، ومعرفة شروطها وأركانها وواجباتها، والحرص على تحقيق كل ذلك، وليس هذا فحسب، بل البحث عن السنن، ومواقف رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وما فعله في هذه العبادة العظيمة، وتتبع خطواته خطوة خطوة، لتقع عبادته على ما أتى به أعلم الناس بربه، والحرص على أن يكون الحج على السنّة، وكم سيجد العبد من الراحة والطمأنينة والخشوع إذا هو تصوّر رسولَ الله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أمامه في كل موقف يقفه، وفي كل خطوة يخطوها، فيسير حيث سار، ويقف حيث وقف، ويسرع حيث أسرع، ويتمهّل كما تمهّل، ويرفع يده حيث رفعها، ويستلم ما استلمه، ويدع ما تركه، ويشير حيث أشار، وهكذا.. في أتباع كامل، ولك أن تتصوّر حضور قلب من سلك هذا النهج في عبادة الحجّ.

(١) [سورة البقرة: آية ١٩٦]



إنَّ خروجَ الحاجِّ من بلده قاصدًا البيت الحرام لأداء فريضة الحج من دلائل إيمانه إن شاء الله، فهو يخرج من بيته ومكان إقامته ومحل راحته، تاركًا وطنه وولده، وصارفًا ماله، ومحتسبًا ما يلقاه من تعب ونصب، يفعل ذلك مستجيبًا لربه، مبتغيًا مرضاته، طامعًا في الثواب، فينبغي عليه احتساب ذلك عند الله عند الخروج من بلده، مستصحبًا ذلك طوال حجه، وحرِّي به وقد وُفِّقَ له، وتيسَّرت له سبله، واستوى على دابته أن يُفَرِّغَ جُلَّ وقته للعبادة، فالحجُّ فُرْصَةٌ للتزوُّد منها، قال الجريري: **(أحرم أنسُ بن مالك من ذات عرق قال: فما سمعناه مُتكلِّمًا إلا بذكر الله حتى حلَّ، وقال: يا ابن أخي، هكذا الإحرام)**

وقال خلاد بن عبد الرحمن: (سألت سعيد بن جبير: أي الحاجِّ أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكفَّ لسانه. قال الثوري: سمعنا أنه من برِّ الحج)

قال ابن قدامة: (ويُسْتَحَبُّ له قَلَّةُ الكلام إلا فيما ينفع، فإنَّ من كثر كلامه كثر سَقَطُهُ، وفي حال الإحرام أشدُّ استحبابًا، لأنه حال عبادة واستشعار بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ فيُشبه الاعتكاف، وقد



احتج أحمدٌ رَحْمَهُ اللهُ على ذلك بأنَّ شريحًا رَحِمَهُ اللهُ "كان إذا أحرم كأنه حيَّةٌ صَمَاءٌ"، فيستحب للمحرم أن يشتغل بالتلبية وذكر الله تعالى، أو قراءة القرآن، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تعليم لجاهل، أو يأمر بحاجته، أو يسكت، وإن تكلم بما لا مآثم فيه، أو أنشد شعرًا لا يقبح، فهو مباح ولا يُكثر).

لقد اعتنى الصالحون في الحجِّ بالعبادات بسائر أنواعها، وصرفوا جُلَّ وقتهم فيه لها، فهم قد أيقنوا أنَّهم في زمن شريف، ومكان مبارك، وملتبسين بعبادة عظيمة، فاجتمع لهم (شرف الزمان، والمكان، والحال) وبه تُضاعفُ الحسنات، فاغتنموا ذلك أحسن اغتنام.

فلذا كان شأنُ الحاجِّ الموفِّقِ أنَّه لا يُضَيِّعُ من حجِّهِ وقتًا في غير طاعة أو قربة، خصوصًا أنَّ السَّوادَ الأعظمَ منهم قد لا يحجُّ إلا حَجَّةً واحدةً نظرًا لكثرة الحُجَّاجِ في هذه الأزمنة، ووجوبه في أصل الشرع مرة في العُمُر.

والحجُّ أَيَّامٌ معدودات، ولو حسبته الحاجُّ لوجده ساعاتٍ سُرعانَ ما تنقضي، وأغلب الحُجَّاجِ اليوم في راحة، وشبهه تفرُّغٍ



الحجُّ وروح العبادة فيه



للعبادة، فالموفق منهم من انشغل بالطاعات، واغتنم هذه الفرصة لإصلاح قلبه وحاله، وجعل الحجَّ مُنطلقًا للعودة إلى الله إن كان بعيدًا عن ربه، ومُوفيًا حَقَّهُ إن كان مُقصرًا فيه، وسبيلًا لزيادة الإيمان، وحبِّ الطاعات والإقبال عليها، مع العزم والنية الصادقة أن يجعل بقية عمره لله وفي سبيل مرضاته.

ولقد سَعَيْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنْ حِكْمِ الْعِبَادَاتِ،
إِذْ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ الْإِحَاطَةَ بِهَا، وَسَعَيْتُ أَنْ يَعِيشَ الْحَاجُّ وَهُوَ
يَقْرَأُ مَا كُتِبَ مَعِ كُلِّ مَنْسَكٍ مِنْ مَنَاسِكِهِ عَيْشَةَ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ، إِذِ الْهَدَفُ
الْأَعْظَمُ هُوَ أَنْ يُؤَدِيَ الْحَاجُّ حَجَّهُ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، مُسْتَحْضِرًا
مَقَاصِدَهُ، وَرُوحَ الْعِبَادَةِ فِيهِ؛ لِيَتَنَفَعَ مِنْهُ وَبِهِ الْإِنْتِفَاعَ الْأَعْظَمَ.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١)



(١) [سورة هود: آية ٨٨]